قرويّة من بيت صفافا

بقلم : د . اسحاق موسى الحسيني

لقد حاولت الف مرة أن أحبر صورتها من دهشي فلم أستطع ، لا لأنها صورة بشعة ، ولكن لأنها تثير في نفسي مشاعر عجيبة . ترى لو كنت عرفتهـــا كما عرفتها أنا استطيع ان تنساها ؟ .

كانت قروية من (بيت صفافا) القرية القريبة من بيتي . كنت اراها كل صباح تحمل على راسها حمولة كبيرة مثقلة بالخضرة والفواكه ، تدور بها على البيوت المجاورة في حي (البقعة التحتا) ، بائعة متجولة وتلك عادة القرويات الفلســـطينيات اللواتي يقطن القرى المجاورة للمدن . الرجل يفلح الأرض والمرأة تبيع الثمار .

وكانت ذات قامة فارعـــة ، وجسم مكتنز باللحم ، ووجه مستطيل ترتسم عليه احاديد عميقـــة ، ويدين كبيرتين خشنتين ، وثوب أزرق طويل ، وحذاءين قديمين أحاطت بهمـــا الرقع من كل جانب .

واعتدت كل صباح أن انهض مبكرا اعلف الدجاج والحمام واسقي الأزهار في الحديقة . كان لي بين هذه المخلوقات الصامتة اصدقاء كثيرون ، كنت أتفاهم معها دون ان يتكلم احد منا . كنت أتفاهم مع الدجاجة بعينيها . وربما تعجب اذا قلت ان حديثا طويلا كان يدور بيننا دون ان ينطلق من احدنا صوت . هل حاولت أن تتامل عيني دجاجة في أثنـاء حياتها ؟ حاول ذلك . ستري في عينيها حديثا . تاملها وهي تقبل عليك لتتناول الحب من يدك ، وهي تلتقر الحب . وتاملها وهي تدعو فراخها . تاملها وهي تدور حولها . تاملها وهي تدور هنا وهنـاك قبل ان تلقي بيضها . واذا كنت لا تفهم حديثا ، فانت الملوم لا هي .

وكنت افهم حديث الوردة وهي ترفع راسها رويدا رويدا في الصباح ، وهي تريد احمرارا كل يوم ، وهي تمتص الماء من التراب ، وهي تتخلص عن نبتات حولها ، وهي تحني راسها قبيل الغروب وهي تستر وجهها بالأوراق قبل ان تنام .

في الطبيعة أصدقاء كثيرون . ولا فرق بينهم وبين الأصدقاء الآدميين الا النطق ولا اكتمك اني احب الصمت ، واحبه كثيرا جدا . واوثره على النطق . وربما كان هذا هو سبب صداقتي للقروية ، او من جملة الأسباب التي ربطتني بها .

كانت تصيح أمامي الجملة وتقول لي

اختر ما تشاء » ثم تصمت . ولا تعود الى الكلام الا حين أسألها عن الثمن .

ولكن مع الأيام زاد عدد كلماتها . وفهمت منها بعد أشهر أنها ترعى ولدين يتيمين خلفهما لها زوجها الذى مات فى ذروة شبابه دون أن يترك شيئا سوى رقعة صغيرة من الارض وبيت صغير مؤلف من حجرتين ، احداهما للنوم ، والثانية للحرس الحنطة والشعير والبصل وما اليها مما تنبته الأرض .

وتركزت حياتها كلها فى شيئين اثنين لا ثالث لهما . استثمار الأرض بأوسع ما يمكن الاستثمار ، وتربية الولدين ليصبحا رجلين يعتمد عليهما وقلبها بعد الفراغ الذى تركه زوجها .

وكانت تكافح فى صمت . تحرث كل يوم بحصرها وفاكهتها ، وتعود ظهرا او قبيل الظهر حاملة بعض حاجياتها من السوق .

ولم أحاول أن أتتبع حياتها فى القرية . ولكنى استطيع أن اتخيل كيف تقضى ايامها ولياليها . فحياة القرية بسيطة . وهى نسخة مكررة من كتاب واحد . واذا قرأته مرة لم تعد محتاجا الى قراءته ثانية .

ودارت الأيام وصب اليهود النار على القرية لمحوها من الوجود ، كما محوا عددا من القرى العربية الآمنة . و (بيت صفافا) مجاورة لمستعمرة يهودية صغيرة اسمها (بيكور حاييم) . بل ان بعض بيوت القرية متداخلة فى المستعمرة وبالعكس .

ولم يحترم سكان المستعمرة حرمة الجوار التى يحترمها جميع الخلق . الم يرد فى كتابهم « .. واما من هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما » الم يسمهم علانا أنبى حين قال « اذكر عبيدك ابراهيم واسحق ويعقوب . لا تلتفت الى علاقة هذا الشعب واثمه وخطيئته » .

وكنت اسمع من بيتى أصوات المدافع الصغيرة والمسدسات ، واشاهد لهيب النار . وكان من الطبيعى ان افكر فى عمدة القرية وولديها . ترى ماذا اصابهم ؟ هل هم احياء ؟ وكيف يعيشون بعد ان انقطعت المواصلات بين القرية الوديعة والمدينة ؟ .

وفى فجر أحد الايام قرع باب بيتى قرعا عنيفا . فهرعت الى النافذة استطلع الخبر فاذا القروية بقامتها الفارعة ووجهها المستطيل ذى الأخاديد . ففتحت الباب واذا هى لا تحمل شيئا . واستسلمت لعطرى ، بدل الحلة التى اعتدت رؤيتها ، ثوب جديد وحذاءان جديدان .

طننت أنها زوجت ولديها . فقد كانت تحدثنى عن قرب زواجهما فى المدة الأخيرة ، وعن سرورها لتلوعهما من الرحولة ، وعن اعدادها للزواج ، وعن ترك البيت للولدين يسكن كل منهما حجرة ، وتنام هى فى الصيف على السطح ، وفى الشتاء فى حجرة صغيرة استطاعت ان تبنيها مع ولديها ، وتضع فيها دجاجتها والشاة الوحيدة التى تملكها .

وبادرتنى القروية بصوت أخشن عميق .

ـ أتعرف قائد المنطقة المسئول عن المجاهدين فيها ؟ .

ـ نعم ، أعرفه .

ـ أتستطيع أن ترشدني اليه ؟ .

ـ أفي هذه الساعة ـ وكل من حولنا وما حولنا نائم ، حتى الطيور والأزهار؟

وتأملت وجهها مستطلعا خبرها ، فلم يكن من عادتها المبادرة بالكلام ـ وحين صمتت قلت لها :

ـ وماذا تريدين من القائد ؟

ولمع في عينيهـــا بريق كالشرر ، واطرقت برأسها ولم تتكلم ، وحينئذ قلت :

ـ أليس من حقي أن اعرف السبب في هذه الظروف ؟

ـ أرسلني اليه بعض المجاهدين في القرية برسالة عاجلة .

ـ وما الرسالة ؟ .

ـ يؤسفني الا أستطيع أن أزيد .

ـ وكيف وصلت الى هنا ؟ .

ـ تسللت من وسط الأشـــجار وزحفت على يدي بعض الطريق .

ثم صمتت ـ وأدركت ان من العبث استدراجها ، فاخرجت ورقة وكتبت عليها عبارة موجزة للقائد الذي كان ينام في منزل طيب بالقـــرب من منزلي ، ودفعتها اليها ، فدهبت مهرولة ، ولمعان الثـــوب والحـــذاءين يخطف بصري ويدهشني .

ومرت ثلاثة ايام واطلاق النار متصل والقرية العربية المجاهدة تقابل النـــار بالمثـــل ، ولم أكن أخرج الا نادرا ، وكانت حواديت الحي تقتل بضع ساعات ليتسرق السكان ثم تقفل ، ويعتلي الحي صمت رهيب ـ ثم تستيقظ السنة النار كأنها شياطين هاربة ، ويدوي صـــوت الرصاص متتابعا حينا ومتقطعا حينـــا آخر ، ويضع كل انسان يده على قلبه متسائلا ـ ترى كم شهيدا حصد اليوم؟ وفي مساء أحد الايام قرع الباب وادا بقائد المنطقة ـ فادخلته وجلسنا نحتسي كوبا من الشاي ، ورأيته صامتا على غير عادته ـ ووددت ان اســـمع منه خبر القرية قبل كل شيء ـ ولكنه لم يذكرها واضطررت الى سؤاله :

ـ هل وصلتك رسالتي مع القروية ؟

وصمت واطرق برأسه ، ففهمت أن شيئا محزنا قد حدث ، ترى أهو من الأسرار الحربية ؟ وأحجرا فتح فمه .

ـ أتعرفها من قبل ؟ .

ـ نعم .

ـ منذ كم سنة ؟ .

ـ منذ سنوات .

ـ أتعرف ولديها ؟ .

ـ لا ، ولكني سمعت منها بعض أخبارهما .

ووقف القائد ونظر من النـــافذة وقال :

ـ أترى تلك البقعة من الارض ؟ هنا يرقد الولدان وأمهما .

ثم صمت ، وتولاني ذهول وصمت

ـ وكيف ؟

ـ كانا يقـــاتلان دفاعا عن القرية بمدفعيتهما واستشهدا في وقت واحد، وأحد رجالهما المدفعيين وأحضروهما لي ، وجاءت أمهما من قبلك تســـالني

بالبندقيتين باعتبارهما ملكا لها واعطتهما لها ، ولم يدر في خلدي شيء مطلقا ، فمن عادة القرى ـ كما تعرف ـ أن يحتفظ بسلاحها ولا تفرط .

وتوقف قليلا ثم أتم :

ـ أتعرف ماذا حدث بعد ذلك ؟ حملت البندقيتين وتوجهت الى البقعة التي سقط فيها ولداها ، وباتت على الارض ، واخذت تطلق النار وحدها لتصيد الآتين المعتدين ، واستطاعت أن تسقط حارس البرج ، فقد رأيتاه يهوى ، اذ لم يكن يتوقع المفاجأة بعد أن توقف القتال وشرع كل فريق يجمع قتلاه وجرحاه ، وظلت تطلق النار حتى قتلت فوق جثتي ولديها ، انهم جميعا هناك ، انهم خمسة ، شابان وام وبندقيتان .

ونظر القائد الى البقعة ثم التفت الى وقال :

ـ لو رويتا هذه الحادثة لظنها الناس قصة خيالية ، أليس كذلك ؟ .

ووقف الكلام في حلقي لتعلمه من صغر ، واستمر هو :

ـ لقد محى بيت من بيوت القرية . وهذا ما يعنون . لانهم لا يقاتلون كي يحكموا ، ولكنهم يقاتلون كي يمحوا أمة من الوجود ليضعوا مكانها أمة أخرى . لو ان القروية احرقتني بنيتها لكنت أعددت معركة انتقامية ، ولكنها لم تصبر ، كان الدم يغلي في جسمها كما يغلي الماء على النار .

وصمت القائد وضغط فكيه ثم عاد ببصره الى البقعة ونظر نظرة طويلة ثم التفت الى فوجدني أحملق ، أصبح في خيالي لا بداية له ولا نهاية ، وقال :

ـ ماذا يدور في رأسك ؟ .

وايقظني سؤاله من حالة تبرق قلبي سريعا ، وقلت :

ـ في رأسي سؤال كبير ، ولكن ليس هذا وقت سؤاله ، اريد ان اعرف منك لم كانت تلبس الثوب الحديد والحذاءين الحديديين في ذلك الصباح ؟ لم تلبسهما قبلا .

ـ ولماذا تظن ؟ .

ـ الذي أعرفه أنها كانت مقبلة على تزويج ولديها ، ثم فقدتهما ولباسها الحديد بعد فقدهما يحيرني .

ـ وأطرق القائد ثم قال :

ـ أرادت ان تحتفل باستشهادهما ، كانت أعدت الثوب والحذاءين للعرس ، فاستعملتها فيما هو شبيه بالعرس عند الغربيين ، أليست هذه عادة العرب أيضا ؟ .

واستولى علينا صمت طويل .